JOURNAL AL-MUQADDIMAH : Journal of Postgraduate Studies In Islamic History and Civilization (e-issn:2289 3954)
https://ejournal.um.edu.my/index.php/MUQADDIMAH Vol.5 (1), Jun 2017
Department of Islamic History and Civilization Page: 93 - 108
Academy of Islamic Studies, University of Malaya

Sectarian Fanaticism in Baghdad and its Most Prominent Manifestations in The 5th Century AH©

العصبية المذهبية في بغداد وأبرز مظاهرها في القرن الخامس الهجري

Souheila Seggani*
Mohd Roslan Bin Mohd nor **
Ahmad Faisal bin Abdul Hamid**

* طالبة دكتوراه في قسم التاريخ والحضارة الإسلامية، أكاديمية الدراسات الإسلامية جامعة ملايا ، ويمكن ان يبعث أي التساؤلات حول هذه المقالة الى عنوان الإيميل souheilas@yahoo.com

** أستاذ ومحاضر بقسم التاريخ والحضارة الإسلامية، أكاديمية الدراسات الإسلامية جامعة ملايا .

*** أستاذ ومحاضر بقسم التاريخ والحضارة الإسلامية، أكاديمية الدراسات الإسلامية جامعة ملايا.

Abstract

In the fifth Hijri century, sectarian fanaticism has emerged in its strongest and most acute forms. Baghdad, the capital of the caliphate, has suffered a lot from its seditions and events. Under the state of Bojana, the Shi'ite intellectual movement was activated in Baghdad and it has developed leading to violent reactions of Sunnis who have been threatened in their intellectual and national security. This article discusses the political and doctrinal circumstances and their role in the emergence of this fanaticism and it highlights their manifestations of the sedition (fitnah) that have arisen and led to fighting between Shiites and Sunnis, which continued to carry out the Seljuk state, but at a lesser pace due to the persecution of the Seljuk authorities of the Shi'a in an attempt to revive the sunnah's curriculum in the community. Additionally, the researcher sheds light on other ideological conflicts that emerged after the middle of the fifth Hijri century between Sunni parties such as Hanninas and Ashasrah. The researcher relies on the descriptive historical approach, and concludes that those ideological differences, characterized by the character of the hyperbole, fanaticism and indulgence of atonement led to the absence of tolerance for the other and the controversy that is better, as well as these differences led to the neglect of the moderate approach through behavior. In addition, leaders and some scholars have dramatically fuelled the fires sedition (fitnah) and they crowd people to participate in which seriously affected the intellectual security of the Islamic Ummah. This security which is the basis for all other types of security and that is achieved by the Islamic nation's reservation of its religion, culture and affiliation.

Keywords: Sectarian fanaticism, sedition, Shia, Sunna

© هذه المقالة كتبت بالمشاركة بين الطالب و المشرفين وهي مستله من رسالة الدكتوراه.

الملخص

لقد برزت العصبية المذهبية في أشد صورها وأوج حِدّتها في القرن الخامس الهجري، وعانت بغداد عاصمة الخلافة الكثير من فتنها وأحداثها، ففي ظل الدولة البويهية نشطت الحركة الفكرية الشيعية ببغداد وتطورت، وأدى ذلك إلى ردود أفعال عنيفة من السنة الذين أضحوا مهددين في أمنهم الفكري والوطني. وتتناول هذه المقالة الحديث عن الظروف السياسية والمذهبية ودورها في بروز العصبية المذهبية، و كذا أبرز مظاهرها متمثلة في الفتن التي ظهرت وأدت إلى الاقتتال بين الشيعة و السنة والتي استمرت إلى قيام الدولة السلجوقية ولكن بوتيرة أقل بسبب اضطهاد السلطات السلجوقية للشيعة في محاولة لإعادة إحياء منهج السنة في حياة المجتمع، وأيضا الحديث عن الصراعات المذهبية الأخرى التي ظهرت بعد منتصف القرن الخامس الهجري بين أطراف سنية مثل الحنابلة والأشاعرة، وقد اعتمدت الباحثة على المنهج التاريخي الوصفي ، وتوصلت إلى أن تلك الخلافات المذهبية التي تميزت بطابع الغلو والتعصب والتساهل في التكفير، قد افتقدت التسامح مع الآخر، والجدل بالتي هي أحسن، وغيبت المنهج الوسطي في الفكر والسلوك، وكان للقادة وبعض العلماء دور كبير في تأجيج نار الفتن وحشد العامة للمشاركة فيها، مما أثر تأثيرا خطيرا على الأمن الفكري للأمة الإسلامية، هذا الأمن الذي هو أساس لكل أنواع الأمن الأخرى والذي بتحققه تحفظ الأمة الإسلامية دينها وثقافتها وانتمائها.

الكلمات المفتاحية: العصبية المذهبية، الفتن، الشيعة، السنة.

المقدمة

لقد ظلت التيارات الفكرية التي تبلورت مفاهيمها وأسسها في القرون الأولى من تاريخ الدولة الإسلامية تتطور وتتشعب سواءً في مجال علم الكلام أو الفقه الإسلامي والتصوف، أو المذهب الشيعي وتفرعاته، ومع تواتر الأحداث السياسية والدينية برزت تلك التيارات الفكرية بقوة في القرن الخامس الهجري، وتعد الحقبة التاريخية التي ساد فيها البويهيون وبعدهم السلاجقة من أخصب الحقبات التاريخية التي تأججت فيها روح العصبية المذهبية الشيعية السنِّية من جهة والمذاهب السنِّية فيما بينها من جهة أخرى، هذه الحقبة التي شكلت لنا صورة تاريخية من صور الصراع والتأزم الديني، والذي تميز بالغلو والتطرف الذي بلغ حد التكفير والاقتتال والاضطراب مما حال دون الانسجام المطلوب بين جميع فئات المجتمع ومستوياته، خاصة بعاصمة الخلافة بغداد وماجاورها، وأثمر فتنًا وآثارا وخيمة انعكست على واقع الأمة الإسلامية بأبعاده ومجالاته المتعددة دينيا وفكريا، ثقافيا واجتماعيا، اقتصاديا وسياسيا.

وبالنظر إلى تلك الحقبة التاريخية التي تخُصها هذه الدراسة وما تميزت به من استفحال العصبية المذهبية وبروز ظاهرة التكفير التي تعد في جوهرها من أخطر الظواهر والقضايا التي تخلف فِتنا وتُنشئ عداءً وأحقادا بين فئات المجتمع وعلمائه، وتؤدي إلى مزيد من التوتر الفكري والاضطراب السلوكي الذي يحُول دون تحقق الأمن الفكري والعقدي، والوطني للأمة الإسلامية أفرادا ومجتمعات وحكومات، نجد أن ما عانته الأمة الإسلامية ببغداد وما جاورها من تنافر واقتتال انتصارا لمذهب معين وعداءً لمخالفيه من الناحية الدينية ودواعيه السياسية في ذلك العصر ينسحب انسحابا جليا على وقتنا الراهن، فظاهرة التعصب والغلو وكذا التكفير هي ذاتها تتكرر، ومعالم الإرهاب والاقتتال باسم الدين ذاتها، ومبادئ

الوسطية والاعتدال أيضا مُغَيبة، وانخراط العوام وبعض العلماء في بعض الفتن أمر واضح مُبين، من هنا كانت هذه الدراسة مهمة، فبالرجوع إلى الأصول التاريخية المسببة لتلك الظواهر والتصور الواضح لها يعين على فهمها و معالجة العديد من القضايا الفكرية في عصرنا، كما يساعد على الحد من استفحال أخطارها خاصة في أوساط فئة الشباب والناشئة.

وتهدف الدراسة إلى الإجابة عن التساؤلات الآتية: ما دور الأمراء البويهيين في تأجيج الفتن بين شيعة بغداد والسنة؟ وإلى أي مدى وصلت إليه تلك الفتن بين فئات المجتمع وعلمائه؟ وما أبرز صور الصراع والتعصب بين المذاهب السنِّية ؟

الظروف السياسية والمذهبية في بغداد

كانت الخلافة العباسية في القرن الرابع الهجري تعاني من اضطرابات وفوضى سياسية عارمة أفقدتها القوة والسيطرة على مجريات الأحداث، مما أعطى فرصة التدخل في سياسة الدولة لمختلف شرائحها من وزراء وقواد وولاة أقاليم، وما أثمر بدوره قوى متعددة تمثلت في عصبيات قبلية أو دينية استطاعت أن تستقل بذاتها سياسيا وعسكريا عن دولة الخلافة، واستُبْدِلت السياسة المركزية التي تمتعت بها الدولة في عصرها الأول إلى اللامركزية، حيث حكم حكام الولايات ولاياتهم حكما مستقلا فتأسست عدة دويلات وإمارات ودول فارسية وأخرى تركية، وكان الأخطر منها ذاك التوسع في النفوذ السياسي لأعراق شيعية المذهب تطمح لرفع رايات البيت العلوي لا العباسي، فحكم الفاطميون الشام ومصر وسائر بلاد المغرب، وسيطر القرامطة على البحرين واليمامة، والحمدانيون يحكمون شمال العراق وحلب حتى الحدود الرومانية، أما بغداد وسائر فارس والعراق فمنذ سنة 334هـ سيطرت عليها الأسرة البويهية الديلمية، ووقعت الخلافة الإسلامية السنِّية لأول مرة في تاريخها تحت وطئة سيادة شيعية استمرت حتى سنة 447هـ، وتسببت في الكثير من الفتن والاضطرابات الدينية والسياسية.

وتتفق جل المصادر التاريخية على أن سياسة البويهيين حذت حذو سياسة الأتراك قبلهم في الاستهانة بالخليفة العباسي والتنكيل به، والاستئثار بزمام السلطة، وخالفوا بذلك أسلافهم الفرس الذين كانوا على ولاء وطاعة للخليفة العباسي، فظل الخلافاء العباسيون في عهدهم خلفاء بلا نفوذ ولا سيادة كما كانوا إبّان النفوذ التركي، ويصف لنا البيروني واقع سلطة الخليفة وما آل إليه بعد تسلط بني بويه على بغداد فيقول " إن الدولة والملك قد انتقل في آخر أيام المتقي وأول أيام المستكفي من آل العباس إلى آل بويه والذي بقي في أيدي العباسية إنما هو أمر ديني اعتقادي لا ملكي دنياوي، كمثل ما لرأس الجالوت عند اليهود من أمر الرئاسة الدينية من غير ملك ولا دولة، فالقائم من ولد العباس الآن إنما هو رئيس الإسلام عند أصحاب النجوم لا ملك."[1]

[1] البيروني. أبو الريحان محمد بن أحمد. الآثار الباقية عن القرون الخالية. دم: مكتبة المتني. دط. دت. ص 132.

ويقول ابن الأثير:"وازداد أمر الخلافة إدبارا، ولم يبق لهم من الأمر شيء البتة، وقد كانوا يراجعون ويؤخذ أمرهم فيما يفعل، والحرمة قائمة بعض الشيء، فلما كان أيام معز الدولة، زال ذلك جميعه، بحيث أن الخليفة لم يبق له وزير، إنما كان له كاتب يدبر أقطاعه وإخراجاته لا غير، وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من يريد".[2]

ولم تكن الدولة البويهية في حقيقتها دولة تأسست على الباعث الديني والاعتقاد الشيعي للإمامة بل كانت الأبعاد السياسية أولى منها في استراتيجيتهم، وهذا ما جعل معز الدولة يرجع في رأيه عن إخراج الخلافة من العباسيين والبيعة لدين الله العلوي أو لغيره من العلويين، خشية الانطياع التام لأوامر الإمام، فعملوا على استمالة شيعة العراق إليهم ونصروهم على السنة، واعترفوا بالخليفة العباسي اسما فقط، كرمز للسلطة الدينية السنِّية، وعاملوهم أسوء معاملة، فخلعوا وأهانوا، وحددوا لهم رواتب شهرية يقطعونها لهم،كما شاركوهم في شارات الخلافة ومظاهر السيادة الدينية والسياسية، فذكر اسمهم بخطب الجمعة مع اسم الخليفة، بل وصل الأمر لقطع اسم الخليفة عن الخطبة لمدة شهرين أيام عضد الدولة لخلاف وقع بينه وبين الخليفة الطائع، وكانوا أول الملوك الذين نقشت أسماؤهم على الدراهم والدنانير. وكان من رموز سيادة الخليفة أيضا ضرب الطبول على باب داره في أوقات الصلوات الخمس فطالب بها معز الدولة الخليفة المطيع لله فكان له ما طلب مع اختلاف بسيط في أوقات ضربها، حيث سمح له بضربها ثلاث أوقات فقط وهي الصبح والمغرب والعشاء، وأصبحت بذلك مطلبا شرعيا لكل من حكم من بعده من البويهيين، حتى إذا جاء أبو كاليجار للحكم أحدث ضرب الطبل في أوقات الصلوات الخمس.

كما تميز الأمراء البويهيون بالزيادة في ألقابهم فسمي عضد الدولة بالملك شاهنماه ولقبه الخليفة الطائع لله بتاج الملة، ولقب ابنه صمصام الدولة بشمس الملة، وزِيد في لقب جلال الدولة شاهنشاه الأعظم " ملك الملوك" فحدثت فتنة بسبب ذلك ونفر العامة وثاروا فرموا الخطباء بالآجر، لتتحول إلى مسألة فقهية بين الفقهاء في فتوى جواز ذلك اللقب لأحد المخلوقين أو عدم جوازه.

وفي خضم هذا الواقع المزري للخلافة الإسلامية العباسية ظهرت للوجود قوة متنامية من الأتراك الغز النازحين من تركستان إلى بلاد ما وراء النهر لأسباب سياسية واقتصادية، زمن الدولة السامانية وتعاهدوا معها على حراسة الحدود ضد غارات الآخرين تقريبا في سنة 375هـ، وتمثلت هذه القوة في الأسرة السلجوقية التي استطاعت أن تتوسع عبر السنين في مناطق ماوراء النهر لتصل عبر مراحل نضالية طويلة مع الغزنويين ثم البويهيين إلى نيسابور وخراسان، ومن ثم عاصمة الخلافة بغداد سنة 447هـ بزعامة السلطان طغرلبك، فاستطاعت أن تعيد للأمة الإسلامية خلافتها السنِّية، فعملت جاهدة على التخلص من الحركة الشيعية وبدعها، وواجهت العديد من الفتن بسبب العصبيات الدينية والفكرية في القرن الخامس الهجري.

أما عن التوجهات الفكرية والمذهبية في ذلك العصر فقد ظل الاعتزال محتفظا بمفكرين ودعاة له ناشطين في العراق وإيران بعد أن فقد دوره الرسمي أيام خلافة المتوكل الذي وضع حدا للمحنة، حتى إذا جاء البويهيون وأضحت

[2] ابن الأثير. أبو الحسن علي بن أبي الكرم. الكامل في التاريخ. بيروت: دار الكتاب العربي. ط1. 1997. ج7. ص160.

السيادة السياسية بأيديهم نجده يتربع في أحضانها من جديد، وأثّر في شخصيات بارزة أمثال الوزير بن عباد و الأديب أبي حيان التوحيدي، وكانت حركة الاعتزال في جوهرها الفكري الذي تطور عبر السنين عبارة عن توفيق كبير وخطير مع الشيعة في نظر أهل السنة آنذاك. ومع تولي القادر الخلافة أدبر الاعتزال إلى مزيد من الانحطاط والتدهور، ولكن لم يندثر نهائيا فقد أعطى بعضا من عناصر بلورته الفكرية بل وتياره العقلاني إلى الإمام الأشعري ومذهبه الذي تطور فيما بعد في العراق ثم الشام.

ومن جهة أخرى فقد كان للتيار الفكري الشيعي وتعدد التوجهات الفكرية في ذلك العصر صدى كبير على الناس وأثّر تأثيرا واضحا وخطيرا على أمنهم الفكري، ولعل ما ذكره الفقيه ابن بطة في سبب تأليفه لكتاب الشرح والإبانة يبين لنا بوضوح التأزم الفكري الذي تميز به ذلك العصر، ويعطي لنا صورا من الانحراف في المعتقد والفكر، وآثار ذلك الانحراف عن المنهج السوي في أوساط الناس فقال:"إني لما رأيت ما قد عم الناس وأظهروه وغلب عليهم فاستحسنوه، من فظائع الأهواء، وقذائع الآراء، وتحريف سنّتهم، وتبديل دينهم حتى صار ذلك سببا لفرقتهم، وفتح باب البلية والعمى على أفئدتهم، وتشتيت ألفتهم وتفريق جماعتهم، فنبذوا الكتاب وراء ظهورهم، واتخذوا الجهال والضلال أربابا في أمورهم من بعد ما جاءهم العلم من ربهم، واستعملوا الخصومات فيما يدّعون، وقطعوا الشهادات عليها بالظنون، واحتجوا بالبهتان فيما ينتحلون، وقلدوا في دينهم الذين لا يعلمون فيما لا برهان لهم به في الكتاب ولا حجة عندهم من الاجماع فيه، وأيم الله لكثير مما ألقت الشياطين على أفواه إخوانهم الملحدين من أقاويل الضلال وزخرف المقال من محدثات البدع بالقول المخترع، بدع تشتبه على العقول، وفتن تتلجلج في الصدور فلا يقوم لتعرضها بشر ولا يثبت لتلجلجها قدم، إلا من عصم الله بالعلم وأيده بالثبت والحلم".[3] ويقول ابن تيمية: " ففي دولة بني بويه ونحوهم كان منهم أصناف المذاهب المذمومة، قوم منهم زنادقة، ومنهم قرامطة كثيرة، ومتفلسفة، ومعتزلة، ورافضة، وهذه الأشياء كثيرة فيهم غالبة عليهم، فحصل في أهل الإسلام والسنة في أيامهم من الوهن ما لم يعرف، حتى استولى النصارى على ثغور الإسلام، وانتشرت القرامطة في أرض مصر والمغرب والمشرق وغير ذلك، وجرت حوادث كثيرة." [4]

لقد شجع البويهيون الشيعة الإمامية الاثني عشرية بالعراق والتي كانت تنمو وتتطور في ظل اضطهاد السلطة العباسية لها، حتى أضحت في عهدهم حركة غفيرة تضم إلى جانبها عددا غير قليل من الأنصار بل ومن الأمراء على اختلاف أصولهم، وبدأت المعتقدات الشيعية تُفرض وتخرج من طور الكتمان إلى الممارسة العلنية، والمواجهة العنيفة مع أهل السنة بما يخالف منهج التسامح والجدال مع الآخر المختلف في الدين والمذهب، والذي عُرف في القرون الأولى من تاريخ الإسلام.

وفي الوقت نفسه نشطت الحركة الإسماعيلية الشيعية بقوة ببغداد، وبالنظر إلى تاريخ التشيع عامة وتاريخ التيار الإسماعيلي خاصة والظروف السياسية والمعطيات الثقافية والاجتماعية التي أحاطت به، ندرك أن الإسماعيلية لم

[3] ابن بطة. أبو عبد الله عبيد الله. الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة. تحقيق: رضا بن نعسان معطي. المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم. ط1. 2002.ص 118.

[4] ابن تيمية. تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم. مجموع الفتاوى. تحقيق: عبد الحمان بن محمد بن قاسم. المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. دط. 1995. ج4. ص 22.

تستطع أن تحقق نجاحا سياسيا سلطويا ببلاد المشرق الإسلامي كما تحقق لها في بلاد المغرب الإسلامي، غير أنهم استطاعوا أن يحققوا نجاحا كبيرا في الجانب الفكري الثقافي، واستطاعوا أن يجعلوا لنشاطهم نفوذا في عدد غير قليل من المراكز العلمية في بلاد فارس ونواحيها، وكوّنوا ولاءً فكريا كبيرا تمهيدا للولاء السياسي الذي أضحى مسبوقا و مشروطا بالولاء الفكري والعقدي، وهذا النجاح في صناعة الولاء الفكري كان نِتاجا لعدة عوامل متظافرة أبرزها الرقابة العباسية وأسلوب المتابعة والملاحقة والاضطهاد لأي حركة معارضة ترجع جذورها إلى الإسماعيلية.

ويقول برنارد لويس معلقا عن الظهور المغاير للإسماعيليين في عهد السلاجقة:" لم تعد القوة العسكرية للترك قابلة للاهتزاز، ولم تعد مدارس الفكر السلفي معرضة لتحد خطير، ولكن كانت هناك وسائل أخرى للهجوم، ومرة أخرى قدمت الإسماعيلية في شكلها الجديد نقدا مغريا للمعتقدات التقليدية التي تحميها إمبراطورية السلاجقة وذلك بعد أن انتهجت استراتيجية ثورية جديدة وفعالة. لقد فشلت الدعوة القديمة للإسماعيلية، وأخذت الإمبراطورية الفاطمية تلفظ أنفاسها الأخيرة. وظهرت الحاجة إلى دعوة جديدة وأسلوب جديد وهما ما قدمهما ثوري عبقري يدعى حسن الصباح".[5] فكانت الحركة الحشاشية التي أنشأها الحسن الصباح -نشأت في القرن الخامس الهجري إبّان الحكم السلجوقي- أكبر خطر هدد الأمن السياسي والثقافي وبَث الخوف والرعب في النفوس، ولم يشهد التاريخ الإسلامي من قبل بكل ماعاناه من حركات ثورية وصراعات مذهبية بمثل قوة وخطر هذه الحركة بأيديولجيتها واستراتيجيتها السياسية وولائها الأعمى لمؤسسها ومبادئها.

وأما على جانب أهل السنة والمذاهب الفقهية فإننا نجد أن مسار الاختلاف الفقهي كان موازٍ لمسار الحركة الفكرية من حيث التطور بحسب مقتضيات تلك الأزمان المتفاوتة، والأحداث السياسية المعقدة، وظل علماء السنة إجمالا موضع ثقة الرعية، ومع النفوذ البويهي الشيعي وتجرأ الشيعة بتعدي كل الحدود المذهبية-بارتفاع أصوات السب واللّعن للخلفاء الأوائل الثلاثة ولعائشة وحفصة -رضي الله عنهما -فلم يسبق التجرأ إلا على لعن خلفاء بني أمية وبني العباس- وتفاقم الفروقات المذهبية إلى فرق وانقسامات سياسية حقيقية ازداد لديهم هاجس الخوف وشعروا بالتهديد على الحكم الإسلامي الذي لا يُمكن أن يكون غير سني، فظلوا يقاومون بشدة الحركة الشيعية على صعيد العقائد، خوفا على الإسلام الصحيح من الانحرافات والبدع،"وكان على هذا الشعور أن يأخذ زخما جديدا كمبدأ منظم لطفته عملية الإجماع ولونته الاستجابات الفردية وفقا لتغير الظروف. فبينما رفض بعض العلماء أي توفيق أو حوار مع الخصوم، انساق آخرون إلى المجادلة وأخذوا على عاتقهم مهمة إظهار الإسلام السلفي بإضاءة جديدة قادرة على إقناع عقول مولعة بالأفكار الفلسفية الدخيلة أو مدربة على أصول الجدل المنطقي، من هنا نشأت حركتان سلفيتان تدافعان عن الخلافة السنّية: الحركة الإيمانية من ناحية ويمثلها الحنابلة، وحركة أهل الكلام من ناحية ثانية ومعظمهم على مذهب الأشاعرة" [6].

ظهر الأشاعرة كحركة ومدرسة فكرية قوية حاربت في بدايتها المعتزلة في بعض المسائل العقائدية، وعملوا بشدة على تفنيد مبادئ مذاهب خصومهم سواءً كانوا مذاهب إسلامية أو غير إسلامية، ومع سيرورة التيارات الفكرية في القرن الخامس الهجري وضعف قوة الشيعة بسقوط الدولة البويهية، ظهرت على الساحة صراعات من نوع آخر شارك فيها كل

[5] برنالد لويس. الحشاشون. تعريب: محمد العزب موسى. بيروت: دار المشرق العربي الكبير. ط1. 1980. ص74.

[6] دومينيك وجانين سورديل.الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي.بيروت: دار الحقيقة. ط1. 1980. ج1. ص144.

من الحنابلة والأشاعرة بقوة وغاب منهج الاعتدال والوسطية التي أمر الإسلام بها، فهاجت أوساط العامة والخاصة من أهل السنة من جديد بفتن تميزت بظاهرتي الغلو والتكفير بل والاقتتال في بعض الأحيان.

ولم يكن هذا الصراع بين الحنابلة والأشاعرة بمنأى عن السلطات التي شاركت بشكل أو بآخر في توسيع الفجوة بينهما وتأجيج نار الفتنة، فكما ساعدت السلطة البويهية الشيعة الإمامية على التوسع والانتشار كذلك وجد المذهب الأشعري تأييدا من قبل نظام الملك وزير ألب أرسلان السلجوقي، وذلك لإدراكه التام بتنامي قوة الشيعة والإسماعيلية منها خاصة وخطرها الشديد على الأمة الإسلامية عقائديا وفكريا وسياسيا، وإيمانه التام أن المدرسة الأشعرية هي أقدر من غيرها على مواجهة غلاة الشيعة، فكان لعلمائها الحظ الأوفر في نشر تصوراتهم في بغداد داخل المدارس النظامية التي أسسها هذا الوزير، غير أن الغلو والتعصب الذي اتّسم به علماء ذلك العصر حال دون تحقق الهدف المشود الذي رسمه نظام الملك، فسرعان ما تجرأ الفقيه القشيري على مهاجمة المذهب الحنبلي في إحدى خطبه، وأدت هذه المهاجمة إلى ردود حنبلية ومعارضة محلية عنيفة شارك فيها كل من العوام والعلماء وعرفت في التاريخ بفتنة القشيري.

العصبية المذهبية بين الشيعة والسنة في بغداد ونواحيها

لقد بدأت مظاهر العصبية بين الشيعة والسنة -متمثلة في الفتن والاقتتال- تظهر بوضوح في بغداد بعد تولي البويهيون السلطة بتشجيعهم الشيعة الإمامية في محاولة منهم للحصول على عصبية جديدة في بغداد، فتمثلت شرارة تلك الفتن في الإعلان عن العقائد والمراسم الشيعية في مجتمع بغداد السني، فتتالت الفتن والاقتتال بينهما في سنوات عديدة متتالية في النصف الثاني للقرن الرابع الهجري(338، 345، 346، 348، 349، 351، 352، 357، 363، 368، 379، 381، 389، 391، 398هـ).ولقد كان للشيخ الصدوق بن بابويه-من أكبر فقهاء الشيعة في العصر البويهي-الدور الكبير في بلورة الفكر الشيعي الإمامي واشتهر بمناظراته في ذلك، وذهب بعض المفكرين إلى أنه أول من نهج نهجا جديدا في الجدل والمناظرات بين الشيعة والسنة، تميز فيه بالجرأة في تكفير أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

وتمثلت أبرز تلك المظاهر والشعائر فيما يلي:

- الجهر بسبِّ ولعن الصَّحابة رضي الله عنهم أجمعين، وكان أولها بأمر من معزِّ الدولة الذي أمر بلعن معاوية رضي الله عنه على جدار مساجد بغداد، وسببه تشدد أهل الحديث في ذلك العصر في تعظيم شخص معاوية وبني أمية أعداء أئمة الشيعة.
- ابتداع معز الدولة لشعائر عاشوراء، وذلك بغلق الأسواق، وأمر النساء بالنياحة واللّطم ونشر شعورهن، وتسويد وجوههن في ذكرى وفاة الحسين رضي الله عنه.
- الاحتفال بعيد غدير خم في العاشر من محرم، بإظهار الزينة بالبلد وفتح الأسواق بالليل كالأعياد، وضرب الدبادب والبوقات.

وظلت هذه الشعائر تتكرر كل سنة وتتكرر معها الفتن والاقتتال بين أهل الكرخ وباب البصرة خاصة، وكانت ممهدات لفتن أكبر في القرن الخامس الهجري، فتلك الحرية الكاملة للشيعة في ممارسة شعاراتهم تطورت وفقا للتطور الفكري لدى علمائهم بالتجرؤ على سبِّ وتكفير الصحابة رضوان الله عليهم، مما زاد في استفزازهم للسنة والتطاول عليهم، فأدى إلى ردات فعل سنية عنيفة، والروايات التاريخة كثيرة في نقل تلك الفتن وأحداثها، ونحاول أن نذكر بعضا منها فقط كما وردت

في الروايات التاريخية لتبيين صور ذلك الصراع والذي نفسه ظل يتكرر مع السنين بنفس الدوافع لكن مع اختلاف في الشكل والوتيرة والزمان فقط.

في سنة 408هـ حصلت فتنة كبيرة بين أهل الشيعة بواسط، فانتصر أهل السنة، وهرب وجوه الشيعة والعلويين إلى علي بن مزيد فاستنصروه.[7] وتفاقمت الفتنة بين الشيعة والسنة، وعمل أهل نهر القلائين بابا على موضعهم، وعمل أهل الكرخ بابا على الدقاقين مما يليهم، وقتل الناس على هذين البابين، وركل المقدام أو مقاتل، وكان على الشرطة ليدخل الكرخ فمنعه أهلها والعيارون الذين فيها، وقاتلوه فأحرق الدكاكين وأطراف نهر الدجاج، ولم يتهيأ له الدخول.[8]

ويذكر اليافعي أنه في سنة 422هـ " عزم الصوفي الملقب بالمنصور على الغزو، فكتب له السلطان منشوراً، وقصد الجامع لقراءة المنشور وبين يديه الرجال بالسلاح يترضون على الشيخين، وصاحوا: هذا يوم معاوي. قلت: يعنون فيه إظهار شعار معاوية بن أبي سفيان في الذكر لأبي بكر وعمر دون علي رضي الله تعالى عنهم فحصبهم أهل الكرخ، فسارت الفتنة، واضطربت، ونهبت العامة دار الشريف المرتضى، ودافع عنه جيرانه الأتراك، واحترقت له سرية، وبات الناس في ليلة صعبة، وتأهبوا للحرب، واجتمعت العامة وخلق من الترك، وقصدوا الكرخ، فرموا النار في الأسواق، وأشرف أهل الكرخ على التلف، فركب الوزير والجند، فوقعت آجره على صدر الوزير، وسقطت عمامته، وقتل جماعة من الشيعة، وزاد النهب فيهم، وأحرق في هذه السائرة عدة أسواق، ولم يجر من السلطان إنكار لضعفه وعجزه، وتبسطت العامة، وآثاروا الفتن: فالنهار فتن ومحن، والليل عملات ونهب" [9].

وفي سنة 443هـ" تجدّدت الفتنة ببغداد بين أهل السنّة والشيعة، وعظمت، وتظاهر الشيعة بمذاهبهم وكتبوا بعض عقائدهم في الأبواب، وأنكر ذلك أهل السنّة، واقتتلوا وأرسل القائم نقيبي العبّاسيّة والعلويّة لكشف الحال فشهدوا للشيعة، ودام القتال وقتل رجل من الهاشميّة من أهل السنّة، فقصدوا مشهد باب النصر ونهبوا ما فيه وأحرقوا ضريح موسى الكاظم وحاقده محمد المتقي وضرائح بني بويه وبعض خلفاء بني العباس، وهموا بنقل شلو الكاظم إلى مقبرة أحمد بن حنبل، فحال دون ذلك جهلهم بعين الجدث. وجاء نقيب العبّاسيّة فمنع من ذلك، وقتل أهل الكرخ من الشيعة أبا سعيد السرخسي مدرّس الحنفيّة. وأحرقوا محال الفقهاء ودورهم، وتعدّت الفتنة إلى الجانب الشرقيّ، وبلغ إحراق المشهد إلى دبيس فعظم عليه، وقطع خطبة القائم لأنه وأهل ناحيته كانوا شيعة، وعوتب في ذلك فاعتذر بأنّ أهل الناحية تغري القائم بأهل السنّة، وأعاد الخطبة بحالها. ثم عظمت الفتنة سنة خمس وأربعين وأربعمائة واطرحوا مراقبة السلطان

[7] ابن الأثير. المصدر نفسه.ج7. ص348.

[8] ابن الجوزي. جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمان. المنتظم في تاريخ الأمم والملوك. تحقيق: محمد عبد القادر عطا. بيروت: دار الكتب العلمية. ط1. 1992. ج15. ص125.

[9] اليافعي. أبو محمد عفيف الدين عبد الله. مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان. بيروت: دار الكتب العلمية. ط1. 1997. ج3. ص32.

ودخل معهم طوائف من الأتراك وقتل بعض العلويّة فصرخ النساء بثأره، واجتمع السواد الأعظم، وركب القوّاد لتسكين الفتنة فقاتلهم أهل الكرخ قتالا شديدا، وحرقت أسواق الكرخ ثم منع الأتراك من الدخول بينهم فسكنوا قليلا".[10]

-وفي سنة 441هـ، تقدم ليلة عاشوراء إلى أهل الكرخ أن لا ينوحوا ولا يعلقوا المسوح على ماجرت به عادتهم خوفا من الفتنة فوعدوا وأخلفوا وجرى بين أهل السنة والشيعة ما يزيد عن الحد من الجرح والقتل حتى عبر الأتراك وضربوا الخيم.وفي يوم عيد الفطر من نفس السنة، ثارت فتنة بين أهل الكرخ وأهل القلائين فاشتدت ووقع بينهما جرح وقتل.[11]

وفي سنة 442هـ "ندب أبو محمد النسوي للعبور وضبط البلد ثم اجتمع العامة من أهل الكرخ والقلائين وباب الشعير وباب البصرة على كلمة واحدة في أنه متى عبر ابن النسوي أحرقوا أسواقهم وانصرفوا عن البلد فصار أهل الكرخ إلى باب نهر القلائين فصلوا فيه وأذنوا في المشهد حي على خير العمل وأهل القلائين بالعتيقة والمسجد بالبزازين بالصلاة خير من النوم واختلطوا واصطلحوا وخرجوا إلى زيارة المشهدين مشهد علي والحسين وأظهروا بالكرخ الترحم على الصحابة وكبس أهل الكرخ دار الوزارة وأخرجوا منها أبا نصر بن مروان وخلصوه من المصادره"[12].

وفي أول صفر من سنة 443هـ " تجددت الفتنة بين السنة والشيعة وعمل أهل الكرج أبراجا وكتبوا بالذهب على آخر تركوه محمد وعلي خير البشر فأنكر أهل السنة ذلك وأثاروا الشر وادعوا أن المكتوب محمد وعلي خير البشر".[13]

-سنة 444هـ" وفيها حدثت فتنة بين السنة والشيعة ببغداد، وامتنع الضبط، وأعاد الشيعة الأذان بحي على خير العمل، وكتبوا على مساجدهم: محمد وعلي خير البشر، وجرى القتال بينهم وعظم الشر".[14]

- سنة 445هـ" عود الفتن بين السنة والشيعة وخرق السياسة وأنه أحضر ابن النسوي وقويت يده وضربت الخيم بين باب الشعير وسوق الطعام فضرب وقتل ونقض ما كتب عليه محمد وعلي خير البشر وطرحت النار في الكرخ بالليل والنهار".[15]

-سنة 447هـ "وفيها وقعت الفتنة بين السنة والرافضة على العادة، فاقتتلوا قتالا مستمرا، ولا تمكن الدولة أن يحجزوا بين الفريقين ".[16] وجاء في المنتظم: "اتصلت الفتن بين أهل باب الطاق وسوق يحيى اتصالا مسرفا وركب صاحب الشرطة والأتراك لإطفاء الفتنة فلم ينفع ذلك وانتقل القتال إلى باب البصرة وأهل الكرخ علي القنطرتين".[17]

-سنة 458هـ "في يوم عاشوراء أغلق أهل الكرخ دكاكينهم وأحضروا نساء ينحن على الحسين، كما جرت به عادتهم السالفة في بدعتهم المتقدمة المخالفة، فحين وقع ذلك أنكرته العامة، وطلب الخليفة أبا الغنائم وأنكر عليه ذلك. فاعتذر

[10] ابن خلدون. عبد الرحمان بن محمد بن محمد. ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر. تحقيق: خليل شحادة. بيروت: دار الفكر. ط2. 1988. ج 4. ص655 .

[11] ابن الجوزي. مصدر سابق. ج15.ص 319-320.

[12] ابن الجوزي، مصدر سابق، ج15، ص 325

[13] ابن الجوزي.مصدر سابق. ج15. ص329. ابن الأثير.مصدر سابق. ج8. ص96.

[14] ابن الأثير. مصدر سابق. ج8. ص 109.

[15] ابن الجوزي. مصدر سابق. ج15. ص 340.

[16] ابن كثير. البداية والنهاية. دم: دار الفكر. 1986. دط. ج12. ص66.

[17] ابن الجوزي. مصدر سابق. ج15. ص 347.

إليه بأنه لم يعلم به، وأنه حين علم أزاله، وتردد أهل الكرخ إلى الديوان يعتذرون من ذلك، وخرج التوقيع بكفر من سب الصحابة وأظهر البدع".[18]

وبسقوط الدولة البويهية وتراجع قوة الشيعة استقوت السنة بقيام الدولة السلجوقية، وبالتتبع التاريخي لفتن الشيعة والسنة في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري نقف على فتنتين كانتا في 470 هـ و 478هـ ، كما نقف على أربع فتن كانت في سنة 481هـ، وسنة 482هـ، و486هـ، و487هـ، وقد كانت للأسباب السابق ذكرها.فيذكر اليافعي في أحداث سنة 470هـ فتنة حدثت ولم يجزم أو يتبين له بوضوح أطراف هذه الفتنة فقال: " فيها كانت فتنة كبيرة ببغداد بسبب الاعتقاد، ووقع النهب في البلد، واشتد الخطب، وركب العسكر، وقتلوا جماعة، حتى فتر الأمر. قلت: هكذا أطلق بعض المؤرخين، ولم تبن هذه الفتنة بين أهل السنة والرافضة أو بين الأشعرية والحنبلية".[19]

وفي سنة 478هـ، و481هـ، وسنة 482هـ، كانت فتن عظيمة بين الرافضة والسنة، وروي أنهم رفعوا المصاحف فجرت بينهما حروب طويلة، وتجرأ أهل الكرخ على سب الصحابة وأزواج النبي ﷺ، وفي سنة 486هـ انتشرت الشرور بينهما، قتل ناس كثير وأحرقت محال كثيرة سنة 487هـ.[20]وفي سنة 483هـ " كانت فتنة هائلة لم يسمع بمثلها بين السنِّية والرافضة، قتل فيها عدد كثير، وعجز والي البلد، واستظهر أهل السنة بكثرة من معهم من أعوان الخليفة، واستكانت الشيعة، وذلوا، ولزموا التقية، وأجابوا إلى أن كتبوا على مساجد الكرخ: خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه فاشتد الناس على غوغائهم، وخرجوا عن عقولهم، واشتدوا، فنهبوا شارع ابن أبي عون، ثم جرت أمور مزعجة، وعاد القتال حتى بعث صدقة بن مزبل عسكراً، يتتبع المفسدين إلى أن فتر الشر قليلاً".[21]

فهذا الخلاف بين الشيعة والسنة جعل البلاد الإسلامية نارا مشتعلة، فكل يوم نسمع هياجا من السنيين لأن شيعيا سب صحابة، ونسمع هياجا من الشيعة لأن أحدا مس عليا أو أحد الأئمة. حتى إن بعض العلماء الكبار من علماء بغداد حرّم على نفسه المشي بالكرخ، لأنه كان يسمع فيها سبّ الصحابة. وعاقب أحد الفاطميين رجلا أشد عقوبة لأنه وجد عنده كتاب الموطأ للإمام مالك، وهذا مما كان سببه ضيق العقل.[22] والبعد عن التعليمات الربانية التي وجهت النبي صلى الله عليه وسلم في بداية دعوته " لاستخدام نهج الودية لدعوة الناس إلى الإسلام، فقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ١٢٥﴾ [النحل: 125]. ويجادل معهم بالطرق الأفضل حسنا والأكثر كرماً..... وأن الحرب (الاقتتال) لا يكون إلاّ كإجراء عقابي للقضاء على الاستبداد والظلم، أو إجراء دفاعي لوقف العدوان. منذ البداية".[23]

---

[18] ابن كثير. مصدر سابق. ج12. ص 93.

[19] اليافعي. مصدر سابق. ج 3. ص76.

[20] انظر ابن كثير. مصدر سابق. ج 12.، ص ص 127-134-135-145-147.

[21] اليافعي. مصدر سابق. ج 3. ص102.

[22] أحمد أمين. ظهر الإسلام. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. دط. 2012. ج2. ص268.

[23] Muhamed Abbes Omar, "The Concept Of Peace In The Quran", *International Journal on Quranic Research* (IJQR),Vol.3, 4. June 2013. p.32.

وبالنظر إلى سيرورة هذه الفتن وشدتها، وما أثمرته من أخطار على الأمن العقدي والفكري للمسلمين، نقف على مفهوم آخر لحقيقتها من خلال بعض الروايات التي تؤكد لنا صورة من صور التعايش السلمي بين الشيعة والسنة، والذي كان في سنة 488هـ حيث يقول ابن كثير[24] " فيها اصطلح أهل الكرخ من الرافضة والسنة مع بقية المحال، وتزاوروا وتواصلوا وتواكلوا، وكان هذا من العجائب"، ونفس الشيء كان في سنة 502هـ مما يؤكد أن الدين والاعتقاد لم يكن مانعًا للتعايش بينهما، ويؤكد إمكانية تقبل الاختلاف المذهبي والتعايش دون تطاول مذهب على آخر،كما يتبين أيضا وجود أطراف عملت على إشعال شرارة الطائفية لمصالح سياسية أكثر منها دينية، غير أن خروج تلك الخلافات وانتقالها من مساحة العلماء إلى مساحة العوام أدى إلى نتائج وخيمة تطاولت آثارها إلى يومنا هذا.

العصبية المذهبية السنِّية

لقد كان للمذهب الحنبلي والأشعري ببغداد الحظ الأوفر في تمثيل معنى العصبية فكرا وسلوكا، وحفظت لنا صفحات التاريخ بعضا من صور الصراع المذهبي الذي خرج عن إطار المنهج السوي في الفكر، ومبدأ التسامح مع الآخر في اختلاف مذهبه أو دينه، ولكن الأسوأ من ذلك أن تقع الفُرقة بين علماء السنة ممن يُفترض بهم أن يكونوا قدوة للعامة في تطبيق مناهج الشريعة الإسلامية بعيدا عن التشدد والغلو اللّذين يهددان أمن الأفراد والمجتمعات، ولعل تراجع وضعف قوة الشيعة بسقوط الدولة البويهية آنذاك أدى إلى نوع من التفرغ للصراعات داخل المذاهب السنِّية ذاتها، فقبل أن يكون الصراع بين الحنابلة وخصومهم الأشاعرة خاصة فقد سبقه صراع حنبلي شافعي بسبب مسألة فقهية بحتة، وتشدَّدَ الحنابلة وعظم أمرهم وقويت شوكتهم في القرن الرابع الهجري حتى كانوا يغررون بالعميان فإذا مر بهم شافعي ضربوه بعصيهم حتى يبلغ حد الموت، وكان شيخهم أبو أحمد البربهاري نموذجا من نماذج التعصب والتشدد لحد التطرف، وكان له شعبية كبيرة وقدرة على حشد الجمهور وقيادته، فكان يقود المواجهات المذهبية بين الحنابلة والشيعة وبين الحنابلة وغيرهم من المذاهب الأخرى، لحد أن أصبح يمثل تهديدا على أمن الدولة وأمن المجتمع، مما أدى بصاحب الشرطة سنة 323هـ إلى إصدار أوامر لأصحابه ببغداد بأن لا يجتمع منهم اثنان ولا يتناظروا، واضطر الخليفة الراضي[25] إلى التدخل بإنكاره لأفعالهم وإدانتهم وتهديدهم بالضرب والقتل والتشريد إن لم ينتهوا عما هم فيه.

وكما كان للشيعة استناد ومرجعية سياسية اعتمدت على السيادة البويهية فكذلك كان الحال في ظل الدولة السلجوقية التي تدخلت ووزرائها في النزاعات المذهبية ولم يمر ما نظموه في الدفاع عن السنة دون إثارة الصدمات، فقد اعتمد طغرلبك المذهب الحنبلي أولا، وكان وزيره عميد الملك أبي نصر منصور بن محمد الكندري "شديد التعصب على الشافعية، كثير الوقيعة في الشافعي، رضي الله عنه، بلغ من تعصبه أنه خاطب السلطان في لعن الرافضة على منابر خراسان، فأذن في ذلك، فأمر بلعنهم، وأضاف إليهم الأشعرية، فأنف من ذلك أئمة خراسان، منهم: الإمام أبو القاسم القشيري، والإمام أبو المعالي الجويني، وغيرهما، ففارقوا خراسان، وأقام إمام الحرمين بمكة أربع سنين إلى أن انقضت دولته، يدرس، ويفتي، فلهذا لقب إمام الحرمين".[26] وفي سنة 456هـ قبض ألب أرسلان على الوزير الكندري وخلفه الوزير

[24] ابن كثير. مصدر سابق. ج12. ص149. ابن الجوزي. مصدر سابق . ج17. ص18..

[25] انظر: ابن الأثير. مصدر سابق. ج7. ص40.

[26] ابن الأثير. مصدر سابق. ج 8. ص190.

نظام الملك الطوسي " فأبطل ما كان عمله العميد وسلطانه من سب الأشعرية على المنابر، وانتصر للشافعية، وأكرم زين الإسلام أبا القاسم القشيري وإمام الحرمين أبا المعالي الجويني".[27] وبذلك غلبت الأشعرية على آراء الحكام، وانتصر الوزير نظام الملك بقوة للأشاعرة في بداية أمره غير أن الاضطرابات وحِدة الخلافات المذهبية آلت دون فرضه على بغداد.

وفي نفس تلك السنة هجم قوم من الحنابلة وكانوا "أصحاب عبد الصمد على أبي علي بن الوليد المدرس لمذهب المعتزلة فسبوه وشتموه لامتناعه من الصلاة في الجامع وتدريسه لهذا المذهب، فقال لهم: لعن الله من لا يوثر الصلاة، ولعن الله من يمنعني منها ويخيفني فيها. إيماء إليهم وإلى أمثالهم من العوام لما يعتقدونه في أهل هذا المذهب من استحلال الدم، ونسبتهم إلى الكفر، وأوقعوا به وجرحوه، وصاح صياحا أخافوا اجتماع أهل الموضع معه عليهم، فتركوه ثم أغلق بابه واتصل اللعن للمعتزلة في جامع المنصور ببغداد".[28]

ونورد جملة من الروايات التاريخية التي ذكرت أحداث الفتن بين المذاهب السنِّية في القرن الخامس الهجري فنذكر بعضا من السنوات المميزة منها كالآتي:

- سنة 446هـ "وقعت بين الحنابلة والأشاعرة فتنة عظيمة حتى تأخر الأشاعرة عن الجمعات خوفا من الحنابلة".[29]

- سنة 447هـ "في هذه السنة وقعت الفتنة بين الفقهاء الشافعية والحنابلة ببغداد، ومقدم الحنابلة أبو يعلى بن الفراء، وابن التميمي، وتبعهم من العامة الجم الغفير، وأنكروا الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، ومنعوا من الترجيع في الأذان، والقنوت في الفجر، ووصلوا إلى ديوان الخليفة، ولم ينفصل حال، وأتى الحنابلة إلى مسجد بباب الشعير، فنهوا إمامه عن الجهر بالبسملة، فأخرج مصحفا وقال: أزيلوها من المصحف حتى لا أتلوها".[30] وعلق ابن كثير عن هذه الفتنة بقوله:

" وقعت الفتنة بين الأشاعرة والحنابلة، فقوى جانب الحنابلة قوة عظيمة، بحيث إنه كان ليس لأحد من الأشاعرة أن يشهد الجمعة ولا الجماعات".[31]

- وفي سنة 469هـ "ورد بغداد أبو نصر ابن الأستاذ أبي القاسم القشيري حاجًا وجلس في المدرسة النظامية يعظ الناس، وفي رباط شيخ الشيوخ وجرى له مع الحنابلة فتن لأنه تكلم على مذهب الأشعري، ونصره، وكثر أتباعه والمتعصبون له، وقصد خصومه من الحنابلة، ومن تبعهم، سوق المدرسة النظامية وقتلوا جماعة وكان من المتعصبين الشيخ أبو إسحاق، وشيخ الشيوخ، وغيرهما من الأعيان، وجرت بين الطائفتين أمور عظيمة." [32]

ويصف لنا الإسفراييني حيثيات هذه الفتنة في كتاب الوفيات والأحداث بقوله:" الفتنة بين الأشاعرة والحنابلة ببغداد سماها السبكي (الابن) فتنة الحنابلة، وسماها ابن رجب الحنبلي فتنة ابن القشيري، والفتنة حصلت بعد دخول

[27] اليافعي. مصدر سابق . ج3. ص60.

[28] ابن الجوزي. مصدر سابق. ج16. ص88. ابن كثير. مصدر سابق. ج12. ص91.

[29] المصدر نفسه. ج15. ص347.

[30] ابن الأثير. مصدر سابق. ج8. ص129.

[31] ابن كثير. مصدر سابق. ج12. ص66.

[32] ابن الأثير. مصدر سابق. ج8. ص261.

ابن القشيري لبغداد وتدريسه في (المدرسة النظامية) ودفاعه عن مذهب الأشاعرة وهجومه على الحنابلة السلفيين ورميهم بالتجسيم، وقام بنصرته أبو إسحاق الشيرازي وكانوا في مواجهة أبي جعفر الحنبلي، فاتفق جماعة من أتباع ابن القشيري على الهجوم على أبي جعفر الحنبلي، وقام أبو جعفر الحنبلي بجمع أتباعه لصد هجوم أتباع ابن القشيري، فوقعت الفتنة وحصل القتل بين الأشاعرة والحنابلة، وقام أتباع ابن القشيري بإغلاق (المدرسة النظامية) مستنجدين بالوزير نظام الملك تخويفاً للخليفة العباسي من تشنيع الأشاعرة الشافعية عليه عند الوزير، فأمر الخليفة العباسي وزيره نظام الملك بجمع ابن القشيري والشيرازي مع أبي جعفر الحنبلي للصلح بينهما، وانتهت الفتنة بحبس أبي جعفر الحنبلي وإخراج ابن القشيري من بغداد، وكانت هذه الفتنة عند العلماء من الأسباب التي أدت إلى الانشقاق بين الأشاعرة و الحنابلة بعد أن كان الحنابلة يتقوون بالأشاعرة في مواجهة المعتزلة والشيعة، ونص ابن عساكر وتقي الدين ابن تيمية أنه لم يزل الاتفاق بين الطرفين حتى جاءت فتنة ابن القشيري، سنة 469 هـ"[33]

- وفي سنة 470هـ كانت الفتنة بسوق الثلاثاء وهو للحنابلة، وسببها خروج متفقه يعرف بالإسكندراني مع بعض ممن يؤثرون الفتنة من المدرسة النظامية، فتكلم بتكفير الحنابلة ورمى بآجره، ثم دخل إلى سوق النظامية واسغاث بأهلها وكانوا شافعية فخرجوا معه لسوق الثلاثاء وكانوا يعج بالعوام، فحدثت فتنة خلفت نحو عشرين قتيلا، ولم تخمد نارها إلا بتدخل السلطات. وكان قد سبقها ورود كتاب نظام الملك إلى الشيخ أبي إسحاق الشيرازي في جواب كتابه إليه في شأن الحنابلة، الذي أورده ابن الجوزي وكان مضمونه تبيين الهدف من تشييد المدرسة هو صيانة السنن والعمل على المصلحة لسد باب الفتن والتفرقة، كما بين أن المذهب الغالب على بغداد هو المذهب الحنبلي وبيّن مكانته عند الأئمة والناس.[34]

- سنة 475هـ كانت الفتنة ببغداد بين الشافعية والحنابلة، وكان سببها أنه " ورد إلى بغداذ هذه السنة الشريف أبو القاسم البكري، المغربي، الواعظ، وكان أشعري المذهب، وكان قد قصد نظام الملك، فأحبه ومال إليه، وسيّره إلى بغداد، وأجرى عليه الجراية الوافرة، فوعظ بالمدرسة النظامية، وكان يذكر الحنابلة ويعيبهم، ويقول: {وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا} [البقرة: 102] ، والله ما كفر أحمد ولكن أصحابه كفروا.ثم إنه قصد يوما دار قاضي القضاة أبي عبد الله الدامغاني بنهر القلائين، فجرى بينه وبين بعض أصحابه وبين قوم من الحنابلة مشاجرة أدت إلى الفتنة، وكثر جمعه، فكبس دور بني الفراء، وأخذ كتبهم، وأخذ منها كتاب الصفات (لأبي يعلى) فكان يقرأ بين يديه وهو جالس على الكرسي للوعظ، فيشنع به عليهم، وجرى له معهم خصومات وفتن، ولقب البكري من الديوان بعلم السنة، ومات ببغداد، ودفن عند قبر أبي الحسن الأشعري". [35]

ولعل مما يصف لنا سوء الحال التي وصل إليها خلاف المذاهب ماذكره ابن الجوزي على لسان أبو بكر بن عبد الباقي الذي قال: دخل أبو يوسف على نظام الملك وعنده أبو محمد التميمي ورجل آخر أشعري، فقال له: أيها الصدر، قد

[33] الاسفراييني. أبو المظفر. الوفيات والأحداث. ج1. ص111. المكتبة الشاملة

[34] انظر تفاصيل ذلك: ابن الجوزي. مصدر سابق. ج16. ص190-191. ابن كثير. مصدر سابق. ج12. ص117.

[35] ابن الأثير. مصدر سابق. ج8. ص282.

اجتمع عندك رؤوس أهل النار. فقال: كيف؟ فقال: أنا معتزلي وهذا مشبه، وذاك أشعري، وبعضنا يكفّر بعضا،"[36] فضحك النظام.وكذا استهزاء وسخرية الأشاعرة ممن خالفهم فقد ذُكر أن " عزيز بن عبد الملك منصور أبو المعالي الجيلي القاضي الملقب سيدله، كان شافعيا في الفروع أشعريا في الأصول، وكان حاكما بباب الأزج، وكان بينه وبين أهل باب الأزج من الحنابلة شنآن كبير، سمع رجلا ينادي على حمار له ضائع فقال: يدخل الأزج ويأخذ بيد من شاء. وقال يوما للنقيب طراد الزينبي: لو حلف إنسان أنه لا يرى إنسان فرأى أهل باب الأزج لم يحنث".[37]

لم تكن هذه الصراعات والفتن عبارة عن اختلافات فقهية اجتهادية أو مسائل اعتقادية فقط بين العلماء، بل تعدت حيز الجدال العلمي بين العلماء إلى طبقة العوام وسلوكياتهم التي اتسمت بكثير من العنف والظلم، كما كانت تلك الخلافات مدعاة للتهاون في مسألة التكفير التي أدت إلى استحلال الدماء بين أبناء المذهب السني الواحد، ولم يكن الدين وحده هو المحرك لتلك الفتن، كما لا يمكن الفصل بين الدين والسياسية في سيرورة تلك الصراعات، بل لأسباب لا نفهم كنهها ولظروف سياسية صعبة تأججت نار الفتنة المذهبية وكان للعلماء والساسة دور كبير في حشد عامة الناس للمشاركة فيها، وقد تفنن العامة في أساليبها كل يحاول استفزاز الآخر بما يغيظه ويثير غضبه، فالحنابلة يستهوون العميان للتحرش بالشوافع، والمتسولون يسألون الناس ويتوسلون بأسماء الصحابة، وأدى هذا النوع من التسول إلى زيادة وتيرة الفتن، مما دفع السلطة البويهية إلى منع السؤال والوعظ باستخدام أسماء الصحابة فأمرت بأن لا يسأل سائل باسم أحد من الصحابة، وإنما يقرأ القرآن فمن أعطاه أخذ منه.

تميزت هذه الاختلافات سواءً كانت عقدية أو فكرية، وسواءً كانت بين الشيعة والسنة أو بين المذاهب السنّية بالتعصب والخروج عن الوسطية التي ميز الله بها أمة الإسلام، فهي منهج حياة متكامل يتميز بالاعتدال في الاعتقاد والسلوك والمعاملة، والإسلام دين معتدل ليس فيه مغالاة في الدين، ولا تعصب لرأي من الآراء، ولا تطرف في الاعتقاد، "إنما التطرف كان ميزة الخوارج في العصور القديمة، وكان العنف والتهديدات و القتل من أهدافهم، ويُنظر إليه أيضًا على أنه هدف لأولئك الذين يحتفظون بالتطرف في هذا الوقت"[38]. كما أنّ غياب معاني الوسطية وتطبيقاتها يولد بالضرورة انحراف فكري وسلوكي يؤثر تأثيرا بالغا على الأمن الفكري للفرد والمجتمع، بتهديد الثوابت والقيّم، ونشر ثقافة العنف في التعامل مع الاختلافات المذهبية الدينية والثقافية، ومما سبق ذكره يتبين بوضوح كيف أثرت تلك العصبية على وحدة المسلمين وإلى هذا اليوم، كما بينت غياب الأمن الوطني في ظل غياب الأمن الفكري والذي يعد أساس كل أمن لارتباطه الوثيق بدين الأمة الإسلامية عقيدةً وشريعةً، منهجًا وسلوكًا.

---

[36] ابن تغري بردي. أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي. النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة. مصر: دار الكتب. دط. دت. ج5. ص156 . ذكرت في أحداث سنة 488 عند ذكر وفاة عبد السلام بن محمد بن يوسف بن بندار أبو يوسف القزوينّ شيخ المعتزلة. ابن الجوزي، مصدر سابق. ج17. ص22.

[37] ابن كثير. مصدر سابق. ج1. ص 160.

[38] Mohd Faizal Abdul Khir, "Mendepani Ekstremisme: Pengajaran Daripada Sejarah Kemunculan Khawarij" (Encountering Extremisme: Lesson From The History Of The Emergence Of Khawarij), *Jurnal Al-Tamaddun*, Bil. 12 (2), 2017, pp.115-125.

الخاتمـة

مما تقدم في هذه الدراسة توصلت الباحثة إلى النتائج التالية:

- كان للأمراء البويهيين دور رئيسي في إشعال الفتنة بين الشيعة والسنة في بغداد لأغراض سياسية، وتبعهم في ذلك علماء من الفريقين، مما يجعلنا نستنتج واقعا استفادة بعض السياسيين من واقع الفوضى والفتن والتكفير بين العلماء والعوام.
- لقد تعدت الاختلافات الفكرية والعقدية وفتنها بين الشيعة والسنة طبقة العلماء إلى طبقة العوام الّذين خرجوا عن سيطرتهم، وابتدعوا أدواتها ونشاطاتها، مما يجعلنا ندرك خطورة تناول العوام للفتن ومشاركتهم في الخلافات بين القادة والعلماء.
- إن محاولة إلغاء الآخر وعدم تقبله أدى إلى بروز ظاهرة التكفير المتبادل وانتشارها بين الفرق الإسلامية في ذلك العصر، مما أنتج فتنا واضطرابات، وهدرا للدماء واستحلالا لها، والتي لا تزال آثارها ليومنا هذا.
- غياب الوسطية والاعتدال عند بعض المذاهب السنّية، وبروز التعصب والغلو عند الحنابلة بشكل فاق التعصب عند الشافعية والأشاعرة، أدى إلى تهديد الأمن الفكري وغياب تحققه في المجتمع المسلم في ذاك العصر.
- للعلماء دور رئيسي في حشد الجمهور وقيادته خاصة من كان منهم يتميز بشعبية كبيرة، سواء كان حشدًا نحو الأمن والاعتدال في الفكر والدين، أو نحو الفتن والتطرف.

وفي ختام هذا البحث أسدي جزيل الشكر إلى جميع القائمين على قسم التاريخ والحضارة الإسلامية في أكاديمية الدراسات الإسلامية بجامعة مالايا على اسهاماتهم وتوجيهاتهم القيمة لطلبة الدراسات العليا بغية تطوير البحث العلمي، فأسأل الله تعالى أ ن يجزيهم عنّا خير الجزاء وأن يوفقنا جميعا لما يحب ويرضى.

المصادروالمراجع

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم. الكامل في التاريخ،(بيروت: دار الكتاب العربي، ط1، 1997).

ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمان، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا،(بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1992).

ابن بطة، أبو عبد الله عبيد الله، الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة، تحقيق: رضا بن نعسان معطي،(المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ط1، 2002)

ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف بن تغري برديي، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة.(مصر: دار الكتب، دط، دت).

ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الحمان بن محمد بن قاسم،(المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، دط، 1995).

ابن خلدون، عبد الرحمان بن محمد بن محمد. ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، (تحقيق: خليل شحادة، بيروت: دار الفكر، ط2، 1988).

ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن عمر. البداية والنهاية،(دم: دار الفكر، دط، 1986).

أحمد أمين، ظهر الإسلام.(القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، دط، 2012).

برنالد لويس، الحشاشون. تعريب: محمد العزب موسى،(بيروت: دار المشرق العربي الكبير، ط1، 1980).

البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد. الآثار الباقية عن القرون الخالية، (دم: مكتبة المتني، دط، دت).

دومينيك وجانين سورديل،الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي.(بيروت: دار الحقيقة، ط1، 1980).

اليافعي، أبو محمد عفيف الدين عبد الله. مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان،

(بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1997).

Mohd Faizal Abdul Khir, "Mendepani Ekstremisme: Pengajaran Daripada Sejarah Kemunculan khawarij (Encountering Extremisme: Lesson From The History Of The Emergence Of Khawarij)", *Jurnal Al-Tamaddun*, Bil 12 (2), 2017.

Muhamed Abbes Omar, "The Concept Of Peace In The Quran", *International Journal On Quranic Research* (IJQR),Vol.3, 4. June 2013.